نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس التاسع عشر

⌧**عناصر المحاضرة:**

❶ غزوة أحد.

❷ غزوة حمراء الأسد.

⌧في شهر شوال من العام الثالث من الهجرة وقعت غزوة أحد، حيث أرادت قريش أن تخلع عار الهزيمة الذي لبسها يوم بدر الكبرى، فعزمت على استئصال المسلمين والقضاء على الإسلام قبل أن ينتشر نوره في ربوع الأرض، وساعتها تسقط الهيمنة الشركية ويكون الدين لله، وهذا ما يقلق أسياد قريش الذين لا يريدون تحقيق العدالة في أرض الله؛ لأن ذلك سيساوي بينهم وبين عامة الناس، فيصبح الجميع سواسية كأسنان المشط، "لا فضلَ لِعربِيٍّ على عجَمِيٍّ ولا لِعجَمِيٍّ على عربِيٍّ ولا لأحمرَ على أسْوَدَ ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوَى".

⌧وكما ذكرنا في اللقاء الماضي أن أبا سفيان خرج من مكة بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء، وثلاثة آلاف بعير، ومائتا فرس، سبعمائة درع،وجاءوا بنسائهم لئلا يفروا! وهذا يظهر الخوف الذي في قلوبهم، وأنه كلما قوي المسلمون إيماناً واتباعاً للمنهج الإلهي لن تستطيع قوة على الأرض أن تنال منهم، والأعداء يعلمون ذلك جيداً؛ من أجل ذلك يبذلون جميع الإمكانات المالية،والسياسية،والإجتماعية،وتسخيرالإعلام ووسائل التواصل، ليفرقوا كلمة المسلمين، ويحرشوا بينهم، ويزرعوا الفتن حتى يقتل بعضهم بعضاً، ويأخذوا أموالهم وخيراتهم ويدبروا بها المكائد والمأمرات ،ويقفون متفرجين سعيدين، برؤية أشلاء الأطفال ودماء الشباب والشيوخ، والمجاعات والنكبات التي حلت بديار المسلمين، إلى متى يا أمة الإسلام نبقى في سباتنا العميق، هلا فقنا وعودنا للكتاب والسنة فبهما والله النصر.

⌧رأى صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد أن البقاء في المدينة هو الأفضل، وبرغم ذلك شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه فأشار عليه عدد منهم بالخروج لملاقاة العدو، فنزل صلى الله عليه وسلم على رأي الأغلبية احتراماً للمشورة وإرساء لمبدأ التشاور في الأمة، لقوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159]، وعرض عليه الصحابة الرجوع لرأيه والبقاء في المدينة، لكنه رفض وقال ﷺ (ما ينبغي لنبي إذا لبس لَأْمَتَه - وهي الدرع - أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه).

⌧وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجيش، حتى إذا كان بمقربة من العدو، يراهم ويرونه رجع زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بثلاثمئة مقاتل، وبقي سبعمئة مقاتل مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو مسلك أهل النفاق في كل عصر، فهم لا يبحثون إلا عن مصالحهم، وهدفهم الأساسي تخذيل المسلمين والعمل على تفريق شملهم وإضعاف وحدتهم، فهم العدو الحقيقي للأمة المسلمة، فالحذر منهم واجب؛ لذا قال عز وجل: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤]، وقد يظن البعض ذلك الانسحاب شراً على المسلمين، والحقيقة خلاف ذلك؛ لأن تنقية صفوف المسلمين من المنافقين فضل ونعمة من الله، فلو خرج المنافقون للجهاد لنشروا

الاضطراب في الصفوف والشر والفساد، ولأسرعوا السير بينكم بالنميمة والبغضاء، ولثبطوهم عن الجهاد في سبيل الله، كما قال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة: 47]

التقى الفرقين وسبق أن ذكرنا التفاصيل، واحتدم القتال وكانت بداية قوية بالنسبة للمسلمين فقد سقط إحدى عشر قتيلًا من المشركين مقابل لا شيء من المسلمين فكان النصر في البداية حليف المسلمين وانهارت معنويات الكفار، وارتفعت معنويات المسلمين إلى أعلى درجة، وبدأ يسيطر المسلمون على الموقف وقاتلوا بقوة وبضراوة شديدة، ومن أبرز المقاتلين أبو دجانة و حمزة رضي الله عنهما قاتلا قتالًا شديدًا، وقتل حمزة رضي الله عنه على يد وحشي بحربته، فكانت الخسارة الفادحة للجيش ، وقاتل عامة المسلمين يومئذ قتالًا عظيمًا شديدًا قاتل أبو بكر وعمر وعلي والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله وعبد الله بن جحش وسعد بن معاذ رضي الله عنهم، كل المسلمين قاتلوا قتالًا شديدًا وأبلوا بلاءً حسنًا في ذلك اليوم.

كان النصر للجيش المسلم في بداية المعركة، وكان لا يقل روعة عن نصر بدر، يقول تعالى:{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ}]آل عمران:152]. وتحسونهم أي: تستأصلونهم.

والله تعالى قد وعد المؤمنين إن كانوا صادقين وصابرين ومتبعين للنبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم النصر في أحد وفي غيرها، وهنا يأتي سؤال لماذا تخلف النصر عن المسلمين في معركة أحد؟ الإجابة لأنهم أخلوا بشرط من أعظم شروط للنصر وهو طاعة النبي صلى الله عليه وسلم ،فنزل أربعين من الرماة الذين أمرهم النبي ﷺ بالثبات على جبل الرماة، وحماية ظهر الجيش وقال لهم إذا رأيتم الطير تخطفنا فلا تساعدونا، فعصوا أمر نبيهم ونزلوا لأجل أخذ الغنائم، وهنا أتت الهزيمة، واغتنم خالد بن الوليد رضي الله عنه الفرصة وكان حينها لم يسلم بعد ،وكان أحد فرسان المشركين، فطوق المسلمين من ظهورهم وقتل بقية الرماة العشرة الذين ثبتوا ولم يغادروا الجبل، وعاد المشركين للقتال ورفعوا رايتهم.

هجوم المشركين على رسول الله ﷺ وإشاعة مقتله:

كانت حركة خالد بن الوليد مباغتة تامة للمسلمين لم يكونوا يتوقعونها فتبعثر أكثرهم وبقي القليل منهم إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم يقاتلون ليشقوا لهم طريقًا من بين قوات قريش التي أطبقت عليهم من كل جانب.

واستشهد كثير من المسلمين وهم يحاولون شق طريقهم واستطاع المشركون أن يصلوا قريبًا جدًا من موضع النبي صلى الله عليه وسلم فرماه أحدهم بحجر أصاب أنفه وكسر رباعيته، وتمالك النبي صلى الله عليه وسلم نفسه وسار مع أصحابه الباقين فإذا به يقع في حفرة حفرها أبو عامر الفاسق ليقع فيها المسلمون، فأسرع إليه علي بن أبي طالب وأخذ بيده... ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى وأخذ المشركون يركزون هجومهم للقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم استماتوا في الدفاع عنه وكانت أم عمارة نسيبة الخزرجية قد خرجت أول النهار ومعها سقاء لها فيه ماء، تدور على المسلمين لتسقي منهم من استسقى، لما أحاط المشركون بالمسلمين وأصبح الخطر الداهم محدقًا بالنبي صلى الله عليه وسلم نفسه، ألقت نسيبة سقاءها واستلت سيفًا وأخذت تذود عن النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف حتى خلصت الجراح إليها، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم عنها: «ما رأيت مثل ما رأيت من أم عمارة في ذلك اليوم، ألتفتُ يمنة وأم عمارة تذود عني، والتفت يسرة وأم عمارة تذود عني»، وقال لها النبي صلى الله عليه وسلم في أرض المعركة: «من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟! سليني يا أم عمارة» قالت: «أسألك رفقتك في الجنة يا رسول الله» قال: «أنتم رفقائي في الجنة. وصدّ أبو دجانة بجسمه النبال

المنهالة صوب النبي صلى الله عليه وسلم فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه، كما وقف سعد بن أبي وقاص إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم يرمي بالنبل دونه، والنبي صلى الله عليه وسلم يناوله النبل، حتى تحطمت القوس، وقاتل طلحة بن عبيد الله حتى أصابه خمسة وثلاثون أو تسعة وثلاثون جرحاً، ووقى النبي ﷺ فأصيبت أصابعه حتى شلت، وتساقط المسلمون حوله صرعى واحدًا بعد الآخر مستقتلين في الدفاع عنه.

⌧وكان اللواء بيد مصعب بن عمير، فضربوا على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذه بيده اليسرى، فضربوا عليها حتى قطعت، فبرك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذي قتله هو عبد الله بن قمئة، فلما قتله ظن أنه قتل رسول الله ﷺ، لأن مصعباً كان يشبهه ﷺ فانصرف ابن قمئة وصاح: إن محمداً قد قتل، وشاع الخبر بسرعة، وبإشاعته تخفف هجوم المشركين، إذ ظنوا أنهم أصابوا الهدف، وبلغوا ما أرادوا.

✽ونادى ثابت بن الدَحْدَاح قومه فقال: يا معشر الأنصار، إن كان محمد قد قتل، فإن الله حي لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم، فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد فما زال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه.

موقف عامة المسلمين بعد التطويق:

⌧ولما رأى المسلمون بداية عملية التطويق تشتتوا وارتبكوا، ولم يصلوا إلى موقف موحد، فمنهم من فر إلى الجنوب حتى بلغ المدينة المنورة، ومنهم من فر إلى شعب أحد ولاذ بالمعسكر، ومنهم من قصد رسول الله ﷺ وأسرع إليه، فدافع عنه كما تقدم، وبقي معظم المسلمين في دائرة التطويق، ثابتين في أمكانهم، يدفعون المطوقين ويقاتلونهم، وحيث لم يكن بينهم من يقودهم بنظام فقد حصل في صفوفهم خبط وإرباك: رجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، حتى قتل اليمان والد حذيفة بأيدي المسلمين أنفسهم، فلما سمعوا خبر مقتل النبي ﷺ فطارت بقية صوابهم، وانهارت الروح المعنوية أوكادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستكيناً، وفكر آخرون في الاتصال بعبد الله بن أبي ـ رأس المنافقين ـ ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان،✽ومر بهؤلاء أنس بن النضر، وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون ؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم قال: اللّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر ؟ فقال أنس: واها لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضي فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته ـ بعد نهاية المعركة ـ ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم .

⌧وبينما هم كذلك إذ رأى كعب بن مالك رسول الله ﷺ وهو يشق الطريق إليهم، فعرفة بعينيه، إذ كان وجهه تحت حلق المغفر والبيضة، فنادى كعب بصوت عال: يا معشر المسلمين!! أبشروا، هذا رسول الله ﷺ فبدأ المسلمون يرجعون إليه، حتى تجمع حوله ثلاثون رجلاً من أصحابه، فشق بهم الطريق بين قريش، ونجح في إنقاذ جيشه المطوق، وسحبه إلى شعب الجبل، وقد حاول المشركون عرقلة هذا الانسحاب، ولكنهم فشلوا تماماً، وقتل منهم اثنان أثناء هذه المحاولة.

وبهذه الخطة الحكيمة نجا المسلمون، ولكن بعد دفعوا الثمن غالياً لما ارتكبه الرماة من الخطأ ومخالفة أمر رسول الله ﷺ.

❍مهما أحاط الإنسان نفسه بالأسباب البشرية فإنه محتاج للحماية والأمن الإلهي، فقد أصاب المسلمين التعب في غزوة أحد فأحاطهم سبحانه وتعالى ببعض مظاهر لطفه وأنزل على طائفة منهم

النعاس الذي أدخل الطمأنينة على قلوبهم وأزال الخوف والفزع من نفوسهم، قال تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ} [آل عمران: 154].

❍والنعاس هو: الفتور في أوائل النوم ومن شأنه أن يزيل عن الإنسان بعض متاعبه ولا يغيب صاحبه، فلذلك كان أمنة لهم، لأنه لو كان نوماً ثقيلاً لهاجمهم المشركون.

❍قال أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه.

❍إن العناية الإلهية إذا أحاطت المؤمن فكل المخاوف والأحداث الجسام ستصبح أمناً وسلاماً، يقول الشاعر: وإذا العناية لاحظتك عيونها نَمْ فالحوادث كلّهن أمان

❍والأمن الرباني لا يتحصل عليه إلا أصحاب القلوب النقية والعقيدة القوية، وكذلك من اتصف بالتقوى والإحسان، قال سبحانه في كتابه العزيز: {إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل: 128]، هذه المعية خاصة بعباده المؤمنين، وهي بالإعانة والنصر والتوفيق {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ} [الأنفال: 12].

❍وكانت البشارة العظيمة بتكذيب خبر وفاة النبي ﷺ، قال تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران:153]

▤ اذكروا -يا أصحاب محمد- ما كان مِن أمركم حين أخذتم تصعدون الجبل هاربين من أعدائكم، ولا تلتفتون إلى أحد لِمَا اعتراكم من الدهشة والخوف والرعب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت في الميدان يناديكم من خلفكم قائلا إليَّ عبادَ الله، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون، فكان جزاؤكم أن أنزل الله بكم ألمًا وضيقًا وغمًّا.التفسير الميسر

قال السعدي:{فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ}أي: غما يتبع غما، غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل، ولكن الله -بلطفه وحسن نظره لعباده- جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرا لهم، فقال: { لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ } من النصر والظفر، { وَلَا مَا أَصَابَكُمْ } من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة، فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم.

قال البقاعي: فهو من الدواء بالداء، ثم علله بقوله: { لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ } أي من النصر والغنيمة { وَلَا مَا أَصَابَكُمْ } أي من القتل والجراح والهزيمة لاشتغالكم عن ذلك بالسرور بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

❍إن طاعة الله ورسوله حصن أمان وأمن واطمئنان، والأحداث عبر التاريخ تثبت ذلك، والمعصية والمخالفة نذير شؤم على الأمة: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 165].

❍وقد رأينا كيف تحول النصر في أحد إلى هزيمة بسبب عصيان الرماة لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم وما ترتب على ذلك من آثار، حيث استشهد سبعون، وأصيب النبي صلى الله عليه وسلم وشجّ رأسه، وكلم في وجنته، وكسرت رباعيته، وهذا بسبب معصية واحدة ومن البعض وليس الكل، ودون إصرار، فكيف بالمعاصي التي ظهرت في البر والبحر؟! وكيف بالمعاصي التي يجاهر بها ليل نهار؟! وبعد ذلك نسأل أنى هذا؟! فالإجابة واضحة؛ {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}.

في الشعب:

وبعدما خرج المسلمون من دائرة التطويق، ونجحوا في التمكن من الشعب حصل بينهم وبين المشركين بعض المناوشات الخفيفة الفردية، ولم يجترئ المشركون على التقدم والمواجهة العامة، وإنما بقوا في الساحة قليلاً.

وجاء أبي بن خلف متغطرساً إلى الشعب يزعم أنه يقتل رسول الله ﷺ، فطعنه رسول الله ﷺ بحربة في ترقوته، في فرجة بين الدرع والبيضة، فتدحرج عن فرسه مراراً، ورجع إلى قريش وهو يخور خوار الثور، فلما بلغ سرف - قريباً من مكة - مات لأجله.

ثم جاء رجال من المشركين يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد، وعلوا في بعض جوانب الجبل، فقاتلهم عمر بن الخطاب ورهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل، وتفيد بعض الروايات أن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قتل ثلاثة منهم.

وبلغ عدد قتلى المشركين اثنين وعشرين وقيل: سبعة وثلاثين، أما المسلمون فقد قتل منهم سبعون: ٤١ من الخزرج، و٢٤ من الأوس، و٤ من المهاجرين، وواحد من اليهود، وقيل غير ذلك

وبعد المحاولة الأخيرة الفاشلة من أبي سفيان وخالد بن الوليد أخذ المشركون يستعدون للعودة إلى مكة.

أما رسول الله ﷺ فإنه لما تمكن من الشعب واطمأن فيه، جاءه علي - رضي الله عنه - بماء من المهراس - هو ماء بأحد - ليشرب منه النبي ﷺ، فوجد له ريحاً فلم يشرب منه، بل غسل به الوجه، وصبه على الرأس، فأخذ الدم ينزف من الجرح، ولا ينقطع، فأحرقت فاطمة رضي الله عنها - قطعة من حصير، وألصقته، فاستمسك الدم، وجاء محمد بن مسلمة بماء سائغ فشرب منه، ودعا له بخير، صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه الظهر قاعدًا من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعودا، ثم توجه النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصلاة إلى الله بالدعاء والثناء فقال لأصحابه: (استووا حتى أثني على ربي - عز وجل ـ، فصاروا خلفه صفوفًا فقال: اللهم لك الحمد كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مُقرِّب لما بعدت، ولا مُبْعِد لما قرَّبت، اللهم ابسط علينا من فضلك ورحمتك وبركتك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينهُ في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسُلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك إله الحق، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق) رواه أحمد

إن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف يكشف عن العبودية الكاملة لله رب العالمين، الفعَّال لما يريد، فهو القابض الباسط، المعطي المانع، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، دعاء فيه الحمد والشكر الدائم لله ـ عز وجل ـ في كل الظروف والأحوال، حتى ولو كان بعد مصيبة أُحُد، والله قادر على نصر المسلمين ومنع الهزيمة، لكنه ـ سبحانه ـ شاء وأذن بوقوع المصيبة بالمسلمين في أحد لِحكم كثيرة يعلمها، قال الله تعالى: { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ }(آل عمران : 166) .

❍والدعاء شرعه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته في ساعة النصر والفتح، وفي ساعة الشدة والبلاء، فله فضائل لا تحصى، وثمرات لا تُعد، ويكفي أنه نوع من أنواع العبادة، بل هو العبادة كلها، كما أن الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، وجعل القلوب متعلقة بخالقها، فينزل عليها السكينة، والثبات والاطمئنان، ويمدها بقوة من عنده، قال ابن حجر: قال السهيلي : " والجهاد تارة يكون بالسلاح وتارة بالدعاء " .

⌧وجاءت نسوة من المهاجرين والأنصار، فيهن عائشة، وأم أيمن، وأم سليم، وأم سليط، فكن يملأن القرب بالماء، ويسقين الجرحى، - رضي الله عنهن أجمعين -.

حوار وقرار:

ولما استعد المشركون للرجوع تماماً أشرف أبو سفيان على الجبل، ونادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، وكان النبي ﷺ هو الذي نهاهم عن الإجابة، فقال أبو سفيان: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله! إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك، فقال؟ أبو سفيان: قد كان فيكم مثله، لم آمر بها ولم تسؤني، ثم قال: اعل هبل، فعلمهم النبي ﷺ الجواب، فأجابوه: الله أعلى وأجل، ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فعلمهم النبي ﷺ الجواب فأجابوه: الله مولانا ولا مولى لكم، ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال، فقال عمر - رضي الله عنه لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، قال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا، ثم دعاه أبو سفيان وقال: أنشدك الله يا عمر! أقتلنا محمداً؟ قال عمر - رضي الله عنه لا، وإنه ليستمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة، وأبر، ثم نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القابل، فأمر رسوا الله ﷺ أحد أصحابه أن يقول: نعم هو بيننا وبينك موعد.

رجوع المشركين وقيام المسلمين بتفقد الجرحى ودفن الشهداء:

⌧ثم رجع أبو سفيان إلى جيشه، وأخذ الجيش في الارتحال، وقد ركب الإبل وجعل الخيل بالجنب، وكان هذا دليل قصدهم لمكة، وكان من فضل الله على المسلمين، إذ لم يكن بين المشركين وبين المدينة من يمنعهم عن الدخول فيها، ولكن صرفهم الله الذي يحول بين المرء وقلبه.

⌧فنزل المسلمون إلى ساحة القتال يتفقدون الجرحى والقتلى، وقد نقل بعضهم بعض الشهداء إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بردهم إلى مضاجعهم، ودفنهم في ثيابهم، بغير غسل ولا صلاة، وقد دفن الاثنين والثلاثة في قبر واحد، وربما جمع بين الرجلين في ثوب واحد، وجعل بينهما الإذخر، وقدم في اللحد من كان أكثر حفظاً للقرآن، وقال ﷺ: (أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ ، لُفُّوهُمْ فِي دِمَائِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ جَرِيحٌ يُجْرَحُ إِلَّا جَاءَ وَجُرْحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمَى ، لَوْنُهُ لَوْنُ الدَّمِ ، وَرِيحُهُ رِيحُ الْمِسْكِ).

⌧ووجدوا نعش حنظلة بن أبي عامر في ناحية فوق الأرض، يقطر منه الماء، فقال النبي ﷺ إن الملائكة تغسله، وكان من قصته أنه كان حديث عهد بعرس، وكان معها إذ سمع المنادي ينادي للحرب، فتركها، وخرج إلى ساحة القتال، وقاتل حتى قتل، وهو جنب، فغسلته الملائكة، فسمى غسيل الملائكة.

⌧وقال رسول الله ﷺ من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؛ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا فنظر، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق، فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله سلامي! وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته! وأبلغ قومك عني السلام

وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.

ومر النبي صلى الله عليه وسلم بعمرو بن الجموح بعدما قتل فقال: «والله لكأني أنظر إليك تمشي برجلك في الجنة وهي صحيحة». وكان من أصحاب الأعذار ومنعوه أبنائه من الخروج للجهاد في سبيل الله، وجاء يشتكي للنبي صلى الله عليه وسلم وقال له ووالله إني لأريد أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة» فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم وها هو نال درجة الشهادة بعرجته فما عذر من لا يصلي، ولا يسعى لرضى ربه، ماذا سيقول لله إذا سأله عن عذره؟

ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة.

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بحمزة - عمه وأخيه من الرضاعة - اشتد حزنه وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنها الزبير أن يصرفها، لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه ودعت له، واسترجعت واستغفرت له ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفنه مع عبد الله بن جحش وكان ابن أخته وأخاه من الرضاعة، وكفن حمزة في برد إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، فجعلوا على رجليه الإذخر.

وقال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبدالمطلب، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشع من البكاء والنشع: الشهيق.

وكذلك مصعب بن عمير مصعب ذلك الشاب المترف الذي كان يلبس أحسن الثياب ، وينتعل افضل النعال ، مضى من الدنيا ولا يملك شيئاً سوى ثوبه الذي عليه ، كفن في برد إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، فجعلوا على رجليه الإذخر.

ومن حكمة الحكيم إكرام الله بعض عباده بنيل الشهادة، التي هي من أعلى المراتب والدرجات، فأراد عز وجل أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في سبيله، ويؤثرون محبته ورضاه على نفوسهم، قال سبحانه: { وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ } (آل عمران: 140)

فالجنة عزيزة غالية لا تُنال إلا على جسر من المشاق والمتاعب، لذلك قال الله: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} (آل عمران: 142).

هناك ملاحظة يجب التنبيه عليها، ما ورد في كتب السيرة من خبر التمثيل بحمزة رضي الله عنه وشق بطنه بعد استشهاده ثابت، لكن ما ورد من استخراج كبده وتناول هند بنت عتبة منها وعدم استساغتها إياها فلا يثبت فيه شيء.

وقد تأثَّر المسلمون ممَّا أسفرتْ عنه نتائج تلك المعركة، وظنُّوا أنَّ النصر لم يعد يعرف طريقًا إليهم، فبيَّن لهم سبحانه أنَّ النصر والهزيمة يَخضعَان لنواميس لا تتحوَّل، وقوانين لا تتخلَّف، وسنن لا تتبدَّل؛ قال الله تعالى: {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الفتح: 23].

وهذه الغزوة كانت تمحيص للمؤمنين وتمييزهم عن المنافقين ، ومحق الكافرين باستحقاهم غضب الله وعقابه ، وقد جمع الله ذلك كله في قوله :(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(141)] آل عمران 139 – 141]

⌧فنزلتْ هذه الآيات تخفيفًا عن المسلمين ما نزَل بهم، وطلبًا منهم ألاَّ يستَسلِموا للضعف والهزيمة، ولا يَيْئَسوا من نصر الله، بل عليهم أنْ يُواجِهوا الموقف بقوَّةٍ وصلابة ورباطة جأش؛ وذلك لأنَّ مكانتهم في الدنيا والآخِرة أسمى وأرفع وأعلى من مكانة أهل الكفر والضلال، (وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقد صدَق الله وعدَه، ونصَر عبدَه، وهزَم أهلَ الشِّرك والضَّلال، فإنَّ النبيَّ ﷺ بعد وقعة أحُدٍ لم يخرج في غزوةٍ من غزواته إلاَّ كان النصر حليفَه، والتوفيق رفيقَه.

🗐إلى المدينة وفي المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ والمسلمون من دفن الشهداء، والدعاء لهم، رجعوا إلى المدينة، وقد خرجت نسوة قتل أقاربهن، فلقين رسول الله ﷺ في الطريق، فعزاهن ودعا لهن، وجاءت امرأة من بني دينار قتل زوجها وأخوها وأبوها، فلما نعوا لها سألت عن رسول الله ﷺ فقالوا لها: إنه بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه، فأشاروا لها، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل: أي صغيرة.

⌧وبات المسلمون في حالة الطوارئ، يحرسون المدينة، ويحرسون رسول الله ﷺ، وهم منهكون من الجرح والتعب، والحزن والألم، ورأى رسول الله ﷺ أنه لابد من متابعة حركات العدو حتى يناجزه في الميدان لو حاول العودة إلى المدينة.

🗐غزوة حمراء الأسد:

❍سبب غزوة حمراء الأسد

مطاردة قريش ومنعها من العودة للقضاء على المسلمين بالمدينة، بخاصة أن النبي صلى الله عليه وسلم خاف أن يقوم المشركين بغزو المدينة مرة ثانية، وذلك لأنهم لم يستفيدوا شيئا من النصرة والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، وكذلك سبب آخروهو ورفع الروح المعنوية للصحابة حيث أن خروج النبي ﷺ بجيشٍ مُثقل بالجراح هو خير رسالة للأعداء بأن المسلمين لا زالوا أعزّة قادرين على المواجهة، وأن جراحهم وآلامهم لا يمكن أن تعوقهم عن مواصلة الجهاد والقتال، وأنّ فرح المشركين بالنصر الذي أحرزوه لن يدوم طويلاً.

❍ملاقاة العدو:

⌧قال أهل المغازي ما حاصله: إن النبي صلى الله عليه وسلم نادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو، وذلك صباح الغد من معركة أحد، أي يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة 3 هـ، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف المزيد، وقالوا: سمعاً وطاعة، كما قال تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: 172]

⌧فخرج سعد بن مُعاذ راجعاً إلى داره يأمر قومَهُ بالمسير، قال: والجراحُ في الناس فاشيةٌ، عامةُ بني عبد الأشهل جريحٌ بل كلُّها، فجاء سعدُ بن مُعاذ، فقال: إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يأمرُكم أن تطلبوا عدوَّكم، قال: يقولُ أسيد بن حضير- وبه سبعُ جراحاتٍ, وهو يُريد أن يُداويها-: سمعاً وطاعةً لله ولرسوله، فأخذ سلاحَهُ، ولم يُعرّج على دواء جراحه، ولحق برسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

وجاء سعدُ بن عُبادة قومَهُ بني ساعدة، فأمرهم بالمسير فتلبسوا ولحقوا.

وجاء أبو قتادة أهلَ خربى، وهم يداوون الجراحَ، فقال: هذا مُنادي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يأمرُكم بطلبِ عدوّكم ، فوثبوا إلى سلاحِهم، وما عرَّجُوا على جراحاتهم، فخرج من بني سلمة أربعون جريحاً، بالطُّفيل بن النعمان ثلاثةَ عشرَ جُرحاً، وبخراش بن الصِّمة عشرُ جراحاتٍ, وبكعب بن مالك بضعة عشر جُرحاً، وبقطبة بن عامر بن حديدة تسع جراحاتٍ, حتى وافوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عليهم السلاحُ قد صفُّوا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم فلمَّا نظرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليهم، والجراحُ فيهم فاشيةٌ، قال: (اللهُمَّ ارحم بني سلمة)، وساروا جميعهم مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، وعسكروا هناك.

⇦قال الله تعالى: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء:141]

إنَّ الرُّوح المؤمِنَة هي التي تنتَصِر، والله يدعو المُسلِمين إلى استِكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوُّرًا وشُعُورًا، فأنتم الأعلَوْن فلا تحزنوا، وأنتم الأعلَوْن فلا تَهِنُوا، أنتم الأعلَوْن إذا حقَّقتُم شرطَ الإيمان، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا،إذا حققوا شروط النصر،ونصروا الله ورسوله ﷺ،ونصروا الدين وانقادوا لشرع الله سمعاً وطاعة.

أما المشركون فكانوا نازلين بالروحاء، على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، يفكرون ويتشاورون في العودة إليها، ويأسفون على ما فاتهم من الفرصة الصالحة.

وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي من المناصحين لرسول الله ﷺ، فجاءه بحمراء الأسد (وَكَانَ يومئذ مشركا ثُمَّ أسلم بعد ذلك) ، وعزاه على ما أصابه في أحد، فأمره رسول الله أن يلحق أبا سفيان ويخذله، فلحقهم بالروحاء، وقد أجمعوا ليعودوا إلى المدينة، فخوفهم أشد التخويف، قال: إن محمداً خرج في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، ولا أرى أن ترتحلوا حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، فلما سمعوا هذا خارت عزائمهم، وانهارت معنوياتهم، واكتفى أبو سفيان بحرب أعصاب دعائية، إذ كلف من يقول للمسلمين: { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ } ، حتى لا يطارده المسلمون، وعجل الارتحال إلى مكة.

أما المسلمون فلم يؤثر فيهم هذا الإنذار، بل: {... فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} وبقوا في حمراء الأسد إلى يوم الأربعاء، ثم رجعوا إلى المدينة: {فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}.

ومداولة الأيام هي بناء على الإيمان والاستعداد والاستحقاق للنصر والخلافة في الأرض، فعندما نكون على قدر المسؤولية، فحينها نحن سادة الدنيا، ولنا الغلبة، لا لذات النصر ونشوة التفوّق، بل لما يحمله المسلم من مبادئ يريد نشرها في العالم كله، حيث سعادة الإنسان وحريته وقيامه بمسؤولياته، وأهمها تحريره من عبادة غير الله تعالى، وأن يكون إيجابيا مكرَّما في هذه الحياة،لا عبداً للشهوات واللذات،والدرهم والدينار،بل عبداً للواحد الأحد الفرد الصمد.

يجب على المسلم اعتقاد أن الله لا يصرف النصر عن قوم يستحقونه، فلا تكون الهزيمة إلا لخلل كما حصل من الرماة، وإلا فالله وعد المؤمنين بالنصر والتمكين إن صدقوا الله وكان همهم نصر الدين واعلاء كلمة التوحيد ومن أصدق من الله حديثاً، قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (محمد، 7)، ويقول سبحانه وتعالى: "وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" (الحج، 40)، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلنتفقد أنفسنا على ما بدا

منا، وما هي وجهتنا الحقيقية، أهي من أجل الله أم لأهداف أخرى تخدم مصالحنا وحياتنا الدنيوية؟ والمسلم يتقلَّب بين الخوف والرَّجاء، والترهيب والترغيب، والوعد والوعيد، والإنذار والإبشار؛ لذلك عليه أنْ يجعَلَ دنياه مزرعة لآخِرته، فيعمَل لِمَعاده كما يعمَل لِمَعاشه، ويعمَل لغده كما يعمَل ليومه، ويعمَل لآخِرته كما يعمَل لدنياه، هكذا أمر الله عبادَه في القرآن، والله ولي المؤمنين.

المراجع:

➊روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

➋الرحيق المختوم المباركفوري.

➌ عبر وفوائد من غزوة أحد إسلام ويب.

➍السيرة النبوية لابن كثير.

➎مداد: غزوة حمراء الأسد مع الفوائد.

➏السيرة النبوية : د راغب السرجاني